على قمة الدنيا وحيدا

تتابع فدوى طوقان في مجموعتها الشعرية الجديدة « على قمة الدنيا وحيدا » الخط الذي رسمته لنفسها في مجموعاتها السابقة . فهي تبقى أسيرة الحزن بمعناه الرومانسي الفردي المباشر . وتبقى ضمن شبكة لغتها الشعرية المائلة الى القتامة والرتابة . وهي حين تحاول أن تجد لنفسها مكانا في الشعر الفلسطيني المعاصر تبقى على طرف هذا الشعر ، تحاول الحوار معه ومع نماذجه ، غير ان الصدفة تظل أقوى من الرياح التي تهب ، فلا تنفتح الا ببطء شديد وتعود بعد ذلك الى الانغلاق باحثة عن نقاط سابقة تستطيع استيعاب المجاري الجديدة . والتحول البطيء نحو الغنائية الجماعية الذي نشهده في هذه المجموعة الجديدة ، هو وليد تطور بطيء بدأ مع مجموعتها « الليل والفرسان » التي حاولت فيها الاقتراب من نماذج الشعر الفلسطيني في الارض المحتلة . لكنها بقيت عند الحدود الخارجية الوصفية لهذه النماذج . من هنا يحاول الشعر الفلسطيني ان يقفز عبر تثوير لغته وتشكيله ، بينما تمشي طوقان ببطء شديد على القاعدة القديمة التي بنتها لنفسها عبر ممارسة الشعر فترة طويلة من الزمن .

ماذا تقدم هذه المجموعة ؟

قبل الاجابة على هذا السؤال ، فاننا سنحاول أن نقرأ المجموعة قراءة نقدية تسمح لنا باكتشاف مفاصل الحركة الشعرية . تضم المجموعة اثنتي عشرة قصيدة تتراوح بين البكائيات الحزينة والمراثي وتشذ قصيدتان عن هذا المنحى الفاجع : « نبوءة العرافة » و« أغنية صغيرة لليأس » . هنا يحاول الشعر اختراق رتابته بالوصول الى الغنائية الجماعية التي تنفجر وسط الالم . غير ان محاولة الاختراق هذه تصطدم بالتراث الشعري الخاص الذي بنته طوقان فلا يلبث الايقاع الرتيب من التغلب على انطلاقة المحاولة . وتعود المجموعة لتنتمي الى رؤية شعرية خاصة تبعدها عن مسار الحركة الشعرية الفلسطينية بتياراتها المختلفة . لكنها لا تسمح لطوقان بتشكيل تيار خاص بها . فليس في هذه التجربة شمول لغوي او رؤيوي ، أي انها لا تؤسس ، بل تتابع . من هنا تبقى صوتا خاصا له مذاقه ودوره .

تحاول هذه المجموعة أن تمركز نفسها حول خمس نقاط :

١ ــ فهي تنطلق **من احساس حاد بالغربة** : على قمة الدنيا وحيدا ، هو كذلك عنوان أهم قصائد المجموعة . فيستحيل الشهيد وائل زعيتر الى رمز فلسطيني شامل . فهو الحنين الى الارض ، وهو الغربة الشاملة الساحقة . لكن وحدته تستحيل مع فعل الموت الذي يدخل فيه الى جبر للوصول صوب الآخرين :

« نحن نمضي ونسافر
ونلاقيك ، نلاقيك على
قمة الدنيا وحيدا يا بعيدا ، يا
قريبا ، يا الذي نحويه فيضا في الخلايا ،
في مسام الجلد ، في نبض الشرايين التي
وترها الحزن المكابر »

هذا الامتداد الذي يشكل قمة التوتر الشعري في القصيدة ، هو قمة محاطة بسفحين من الحنين الرومانسي والتفجع العاطفي . فالغربة تبقى غربة فردية لها سماتها الخاصة ، وهي حين تحاول أن تتعمم لا تلبث أن تعود الى الشعارات الجاهزة والخاتمة المتوقعة . فالموت هنا ، هو موت حقيقي وعياني . والتجربة الشعرية لا تستطيع أن تمسك به كلحظة تاريخية . من هنا تصبح الغربة فردية ، رغم محاولة اقناعنا بجماعيتها ، ورغم ما فيها هي كتجربة حية من امتداد يتخطى الفرد ، ويصب في النقطة التي توحد شعبا بأكمله . هذه الغربة الفردية ، لا تلبث ان تطالعنا في أولى قصائد المجموعة « في المدينة الهرمة » فالتداعي بين لندن ونابلس يستطيع ان يتجاوز مسألة وعد بلفور ليصل الى صلب العلاقة الامبريالية نفسها . لكننا هنا ، بين وعد بلفور وبين تحقيقه في مجنزرة اسرائيلية تعبر شوارع الضفة الغربية . لذلك يأتي النفس الشعري خائفا من المواجهة . يحاذي المسألة ، ويتطلع اليها ، دون ان يصل الى ربط المسألتين . « كلنا في حصار التوحد » تقول القصيدة . وينساب اللحن جنائزيا امام العجز الكامل عن مواجهة الحقيقة . فالحقيقة المرة نعتادها دون أن نواجهها ونبقى في الوحدة القاتلة .